الفصل السادس عشر

مدرسة التاريخ

كانت عيون خمسين طالبة تلتمع بانتباه وحواسـهن مرهفـة، وران صمت مطلق ومها تلقي درسها في التاريخ.

"ان كل تاريخ يهمل دور الشعب هو تاريخ مزيف سخيف ينبع مـن مخيلة مريضة، ذلك لأن الواقع في التاريخ يعني الشعوب، يعني عظمتها وروعتها في النضال والتضحية والصبر على الجهاد.. انه يعنـي فـي الجزائر مثلا مليون شهيد في ثورتها الجبـارة الحاليـة للخـلاص مـن الإستعمار، وبضعة ملايين مـن الأيتـام الجيـاع والنـساء الثكـالى، والمشردين في الصحارى يقـتلهم الظمـأ، والمـسجونين فـي سـجون المستعمرين الفرنسيين يقتلهم التعذيب والسياط.. ان واقع التاريخ يعنـي مئات ألوف الضحايا التي قدمها شعب العراق مع عشرات ألوف العائلات التي اندثرت بنتيجة الجهاد ضد المحتل الغاصب وأعوانه الخونة طيلـة أربعين عاما.. وواقع التاريخ يعني التضحيات الهائلة التي قدمها الـشعب السوري لينال حريته وديموقراطيته.. قال جواهر لال نهـرو للـرئيس القوتلي قبل الوحدة "كم تعدون؟" فأجاب "أربعة ملايين" دهش وقال أنـتم الشعب الصغير تشغلون صحف العالم بهذا الشكل الذي يقض مـضاجع الإستعمار؟ حقا ان سوريا جزيرة الحرية الخضراء". وواقع التاريخ فـي شعب فلسطين الذي اقتلع من جذوره، وشرد تحت كل نجم في حالة يعجز البؤس عن وصف بؤسها.. وواقع التاريخ في انتفاضات الشعب المصري التي لم تنقطع ضد الظلم والطغيان.. وواقع التاريخ في ما يقدمـه شـعبا عمان والجنوب العربيين في هذه الأيام من دماء زكية في سـبيل طـرد المستعمر، فاذا أنجز أفراد أعمالا حاسمة في وقت مناسب فبفضل الشعب

الذي يتحمل كل مآسي النضال والجهاد.. فيقتل منه كثيرون ويسجن منه آخرون ويشرد غيرهم عن الوطن، فيهيئ بتضحياته الظرف لتألق بطـل ما يعبر عن أمانيه.. ان الشعب في اللحظات الحاسمة يضع ثقلـه فـي الميزان لصالح حكم أو تحطيمه لصالح ثورة أو إحباطها.. وهكـذا فـي الثورة الفرنسية التي نحن بصددها.. كان الشعب يغلي حقدا على...."

ولاحظت مها بأن نظرات بضع طالبات في الصف المجاور للباب قد تحولت فجأة الى الممر، وتغامزن وتباسـمن لـسماع عطـسة مكتومـة فضحت صاحبها.. فقطعت مها الغرفة ببضعة خطـوات علـى رؤوس أصابعها الى الباب، واذا بها وجها لوجه أمام الأستاذ المصري يـسترق السمع.. وشحب وجهه ودارت عيناه الحولاوان فـي حيـرة ظـاهرة.. وحدجته مها بنظرة مفعمة بالاستياء والازدراء، ورد عليها بنظرة ذعر ثم تحدي، وأدار ظهره ومضى..

ولم يمض بضعة أيام حتى دعيت مها الى غرفة المـدير وأسـلمت مرسوم تسريحها من العمل.. فجف ريقها وبردت أطرافها ثم اسـتجمعت شجاعتها، واضطرم في عينيها ذلك الـوهج الـذي يلتهـب بالـسخرية والغضب حين تثار، ورمت بالمرسوم الى طاولة المدير وقالت:

- انني أرفض استلامه.. بأي حق أسرح؟ سوريا أنفقت علي سنوات من مال شعبها على دراستي، فبأي حق أسرح؟ انني أشعر بمـسؤوليتي أمام طالباتي ووطني وأرفض هذا القرار الجائر.. ليقتلعوني مـن هـذا المكان اقتلاعا.. ليبعثوا برجال الأمن، انني لاأخرج من هذا المكان بمثل السهولة التي يتصورون.. إفتح سجلي وانظر الى تقارير المفتشين عني! بأي حق أسرح؟ بأي حق؟

ونكس المدير رأسه وقال:

- انني آسف.. انك لاتعلمين كم يحزنني أن تفقدك الكلية والطالبات.. ولكن ماذا أفعل؟ انني والد لخمسة أطفال. ألست أرى التخريب؟ في كـل يوم قرار جائر وعقبات أمام العلم.. كأنما يتعمدون أن يلقوا بأبنائنا الـى ظلمات الجهل والتجهيل.. فاذا كان الأميون عندهم يشكلون ثلاثة أربـاع أهل البلاد فيجب أن يكونوا هكذا عندنا. والآن ماذا أفعل وقـد ابتـدأت حملات التسريح؟ صفوف بلا مدرسات.. كأنما لايكفيني إجازات الأمومة وإجازات المرض حتى نبلى بالتسريح التعـسفي! وأنـت أصـلحك الله لاتفتئين تتحدثين عن الحرية والدموقراطية!..

- أفي هذا جريمة؟

- بعد الوحدة نحن ملتزمون بقوانين مصر.. لمـاذا لـم تدرسـي طالباتك خطابات الرئيس؟ انها خلاصة العلم والنور والمعرفة.

- ليست هذه واجباتي.. لتدرس في معهد خاص لتخريج المهـرجين السياسيين..

- ولماذا لاتبتسمين للمدرس المصري؟ جاءت شكوى بحقـك لهـذا السبب لأنها دليل على معاداتك للوحدة.

- ان هذا لمن أعجب ما سمعت.. من يملك الحق أن يحاسبني علـى توزيع الابتسامات؟ انه أتفه من أن ألقي اليه بنظرة!..

- قال بأنك تحدجينه بازدراء.

- فعلت مرة عندما شاهدته يسترق السمع الى ما أقول في الصف..

- هكذا ياسيدتي! كان قبل الوحدة يدخل غرفتي باستئذان، ويـنكمش على نفسه بذلة تستدر اشفاقي. أصبح اليوم نمرا يكشّر عن أنيابه، ويقتحم غرفتي اقتحاما، ويفرض أوامره علي.. انه هو، ولست أنا المدير!.

وخرجت مها الى الردهة.. كان النهار قاسي البرد وقد احتمى عـدد كبير من الطالبات في الردهة، وكان بعضهن يلعبن لعبة تصفيق الأيـدي حتى يستدفئن، وأخريات يقفزن، وغيرهن قد أحطن بطاولة البنج بـونج يشاهدن اللعب. وكانت طالباتها يبتسمن لها وهي تمـر؛ وأحـست مهـا بالأسى يعض قلبها كذئب جائع.. أن تترك طالباتها، أن تنأى عـن هـذا الجو البهيج الذي ينسيها الى حين عذابها لغياب أحمد، أن تنكمش كعجوز في البيت بلا عمل، ولا هدف، تنفق من ذلك المال القليل الـذي وفرتـه وأحمد ليدفعا القسط الأول عن بيت متواضع، يأويان اليه ويستريحان من عبء أجرة المنزل الفادحة.. وعادت الى البيت والكآبة ترزح ثقيلة على نفسها حتى تكاد تخنقها، وأشعلت المدفأة ووضعت عليها ابريق الشاي، ثم وقفت تنظر الى صورة أحمد وعبراتها تجري على وجنتيهـا، فـسمعت رنين الباب وذهبت لترى من القادم فشاهدت امرأة كهلة ترتـدي مـلاءة سوداء وسألتها المرأة:

-هل أنت أم عزيز؟

- نعم.

- معي رسالة من زوجك..

وخفق قلب مها :

- تفضلي، تفضلي ياخالتي!.. هل أحمد بخير؟

- نعم. هاك الرسالة..

وفضت مها الرسالة بيد مرتعشة وقلب لهف وأشرق وجهها بالغبطة، والتمعت عيناها بالدموع، ونظرت الى المرأة بامتنان عميق وقالت وهي تضمها بحرارة:

- أشكرك يا أم فؤاد.. انني لن أنسى معروفك في حياتي..

- لم أفعل شيئا يستحق الشكر..

- بل كنت شهمة وشجاعة، واحتملت مسؤولية كبيرة في ايوائك أحمد، وخصوصا بعد أن أخذوا في الصحف والاذاعة يتهددون ويتوعدون من يؤوي الفارين..

- الغريق لايخشى من البلل.. ان وحيدي في سجونهم.. يا ضناي! لم ألملم سواه في حياتي..

وحدثت المرأة مها بقصتها مع رجال المخابرات، فأحست مها بنار تلسع قلبها.. وتأوهت قائلة:

- كيف يمكن لإنسان أن تبلغ به السادية هذا المبلغ؟ ألم يعد من شغل يشغلهم سوى الإيقاع بكل إنسان شريف يتصدى لهم ولا يوافقهم على ما يرتكبونه من جرائم بحق الناس؟

وأخذت المرأتان تسكب كلتاهما قلبها للأخرى وقد توثقت رابطة التعاطف بينهما، وكانت مها تنهال بأسئلتها تطمئن بها عن حال أحمد وصحته وكيف يمضي أوقاته، وما هو بحاجة اليه، ويتردد في أعماقها رغبة عارمة أن ترى أحمد فيصدها ما تخشاه من جر المخاطر عليه.. وغلى الماء في الابريق فهيأت الشاي وقدمت منه لأم فؤاد.. وأخذت ترشف الشاي وقد عادت الى حديثها:

- كدت أجن خلال الشهر الذي مضى.. لماذا لم يطمئنني؟ ألف هاجس هجس في خاطري حتى ليتعذر علي تصديق ما أسمع حتى أراه..

- لم يكن ممكنا الإتصال بك قبل، اذ أن بيتك كان مراقبا.. وكان من العسير أن أتركه وحده.

ووجف قلب مها وقالت:

- ماذا به ؟ ماذا أصابه؟

- لاتخافي! شيء مضى وتعافى.. حرارة برد ولكنها دامت فتـرة، وكان يستغرق في النوم. وطلب مني ان أدعو له شخصا..

- من هو؟

- وعدت أن لاأبوح باسمه. وسينقل الى منزله الليلة..

- ألا أستطيع أن أراه قبل أن يذهب الى المنزل الآخر؟

- لست أدري.. ان الأمر منوط به. وقد تكونين مراقبة فتعرضـينه للخطر..

- غدا عيد والناس مشغولون بأنفسهم حتى رجال الأمن..

- لاتتصوري ان عيونهم تنام.

- سأحتاط للأمر. أذهب الى السوق وأزور صديقة بعيدة ثـم آخـذ تكسيا من هناك الى مكان قريب من البيت.. أرسمي لي مكان البيت حتى لا أسأل عنه أحدا وسأنتبه جيدا ان كنت مراقبة.

- أليس من الأفضل أن نأخذ رأيه أولا..

- أخشى أن يرفض.

- لاتستسلمي للعواطف يا بنيتي.. ان ذهابـك اليـه غيـر مـأمون العواقب..

- ما هذا المرض الفجائي الذي اصابه؟ ليس من عادته أن يـصاب ببرد ويبقى شهرا.. أخشى أن يكون الأمر أسوأ مما تذكرين.

- لاتقلقي قلت لك شيء ومضى وهو الآن في صحة جيدة.. أرسلني لأطمئنك، وسأكون واسطة اتصال بينك وبينه.. إكتبي له وطمئنيه عـن نفسك وعن عزيز..

- هناك أشياء تخفيها عني يا خالة.. أخبريني الحقيقة! في عينيـك أشياء لم تفه بها شفتاك.. ماذا أصاب احمد؟ أيكون هنا في دمشق وهـو

مريض ولا أستطيع أن أراه؟ أي شقاء هذا! والليلة ليلة عيـد، والنـاس يهزجون في الطرقات فرحين، أتسمعينهم؟ انهم يهتفون للوحدة وللرئيس؛ لم تقترب منهم النار بعد..

وأجهشت مها بالبكاء..

يا لسخرية الحياة عندما تنقلب فيها القيم!

واسترسلت مها بالبكاء والأهازيج تعلو في الخارج وهمست أم فؤاد:

- لاتبكي يا ابنتي! لايجوز لزوجة مناضل أن تبكي هكذا..

- بكائي عزاء لي.. ليس في بكائي استسلام ولا انكسار ولا ندم ولا تبكيت للضمير.. انني أحس بكبرياء عظيمة وأنصت الى أغنيـة رائعـة يدمدم بها المستقبل، هي غير هتافات المرتزقة، أغنية الشعب الذي ننسج بآلامنا سعادته وحريته.. ويهون علي كل شيء.. حتى هذا الفراق الـذي قدر علينا.. أرجوك يا خالة، إذهبي وقولي له أنني أريـد أن أراه هـذه المرة فقط، لأطمئن وأحمل في قلبي طاقة جديدة لأحتمل فراقا قد يطول..

- ان ذهابي وايابي مرتين قد يثير الإنتباه.. لنتوكل على الله فاذهبي معي.. سأشتري حلوى للعيد من المرجة ومن هناك نأخذ سيارة عـابرة فلا ينتبه لنا أحد.. أين عزيز ليحرسه الله لك؟

- لم يعد بعد من المدرسة.

- أين تتركيه؟

- سأوصي جارتي به، وأخبرها أنني أريد أن أشتري حاجات للعيد.

ذهل أحمد لتلك المفاجأة ولم يصدق عينيه.. كان الفرح يـشع فـي وجهه وهو يضم مها الى صدره..

- ما كان يجب أن تأتي يا حبيبتي..

فتقول ضاحكة وعيناها تدمعان:

- جئت فما عاد يفيد اللوم..

وتتحسس جسده وهي ترتجف:

- أين جرحك حتى لأوجعك.

- هل أخبرتك؟ أصلحها الله! حتى أم فؤاد لاتقوى على كتمان سر.. هذا ما خشيته.. لو وقعت في أيديهم فربما آذوك وآذوا البيت الذي آواني ولكنها امرأة من أطيب النساء.. احتملت الكثير.

- انني أحببتها كثيرا..

- رأتني مشغول البال عليك وعلى عزيز فتطوعت للأمر.. كيـف أنت وكيف حال عزيز؟ ألم يزعجكما أحد بعد غيابي؟

- خبرني عن نفسك.. نحن بألف خير..

- كما ترينني انني بخير أنا الآخر..

- وجرحك!

- يكاد يندمل..

كان أحمد يرتدي طقما رماديا من ثياب فؤاد، وكان حليق الوجه الاّ أن شعره كانت قد عبثت به يد غير ماهرة.. وقالت له مها باسمة وهـي تمر بيدها على شعره "من يقص لك شعرك؟"

وضحك قائلا :

- صاحب البيت.

- سأبشرك يا حبيبي.. انهم أطلقوا سراح إحسان..

- حسن جدا.. ولكن يجب أن لانتفاءل كثيرا.. قد يكون في الأمـر حيلة.. ان ألاعيب الأوغاد في غاية السفالة وهي لا تخطر على بال أحد. أنا سمعت خبرا آخر.. لقد قبضوا على صفا..

- أليس هذا الرجل عضوا في اللجنة المركزية؟

- هو بعينه.. ويقال أنه تخاذل وأصبح جاسوسا لهم.. أما رأيي أنـا فانه كان كذلك منذ زمن بعيد.. شخص مدسوس ملوث الضمير، ولم أكن لأثق به أبدا.. كل الأسرار بين يديه.. أرواح الشرفاء الطيبين كلهـا قـد أصبحت في قبضته..

- لاحول ولا قوة الا بالله!

- وأنت يا حبيبتي، أرجو أن لايكون هناك من يعاكسك في عملك.. انتبهي يا مها، ان المنافقين والسفلة لاتخلو منهم الـدنيا، وقـد يجربـون استثارتك أو إهانتك أو الإيقاع بك بجرك الى حديث أو غيـره.. وهـم يظهرون لك الصداقة من حيث يضمرون الشر فلا تأمني لأحد منهم ابدا يا حبيبتي، فمهما بدا لك من لطفه ومودته ومهما توثقت العلاقة به.. فمن مهام الوغد أن يصبر على اللطف كي يصل الى هدفه الذي عين له مـن قبل من هم وراءه.. التاريخ مليء بالأمثلة على غدر أعداء الإنسان وعلى تنوع أساليبهم ووسائلهم، ولكنني واثق من حكمتك وفطنتك فلن تقبلي أية استثارة، ولن تنجري الى أي حديث لا لزوم له ولـن تقعـي فـي أيـة أحبولة.. اننا نمر يا حبيبتي بأوقات عصيبة جدا، ويجب على المرء فيها أن يحاسب نفسه على كل كلمة يتفوه بها ليس للأغراب فقط بل ولأقرب الناس اليه. اذ تنتقل الكلمات وتحور عن حسن نية أو سوء نية ثم تـزداد الأمور بعد هذا تعقيدا، وتزداد معها الأحوال سوءا.. الاّ أنك لاشك قادرة على مواجهة كل هذا بالصبر والحكمة وبضبط النفس، وانني لعلى ثقـة كبيرة بك..

كانت مها صامتة تصغي اليه وهي مترددة أتخبره بأمر تسريحها أم لا وقد عصر قلبها كآبة غامضة، ولم يلبث أن غلبها على أمرها اعتيادها مصارحته بكل امر يحزبها..

- يؤسفني أن أخبرك يا أحمد بأمر قد يزيد في مشكلاتك وهمومك..

- ما هو يا مها؟

- لقد أبلغت اليوم مرسوم تسريحي..

- آه هكذا دون سبب!..

- قالوا بأنني أزرع في أذهان الطالبات أفكارا معادية للحكم..

- انهم يختلقون كل الأسباب لمضايقتنا.. لابأس يا حبيبتي، حـاولي أن تهيئي جواز سفر لك ولعزيز وسأستدعيك الي حالما أصبح في مأمن خارج البلد..

وأشرق وجه مها وعانقت زوجها فضمها بلهفة وقبلها..

- قيل لي أنك ستنتقل الى مكان آخر، فهل أسـتطيع أن أراك فـي مقرك الجديد؟

- سنقرر هذا الأمر حسب الظروف، ولكن إياك أن تفعلي شيئا دون أن أطلب اليك ذلك.. فالاستسلام للعاطفة قد يقودنا جميعنا للشقاء يا حبيبتي..

* * *